الاغتراب في الرواية العراقية المعاصرة

دراسة نقدية في رواية غسق الكراكي انموذجاً

د. أركان حسين مطير

كلية الآداب – جامعة بغداد

يولد الانسان وينمو في معترك التيه اللامنتهي ، فهو حتماً لم يصنع قدره ، ولم يحاول ان يرسم صورة الغد الآتي إلا عبر تخطيطات مموهة متناقضة تحسبا من هزيمة من نوع ما.

فنراه يتمسك بالتناقض خوفا من المجهول وبحثا عن نجاة ، فتتهشم السنوات ، وتموت الاماني ، ويتلاشى الطموح ، في ضبابية القدر وجبروته ، وهو يقف هناك دون ملل يصارع الحياة بانتظار الفرج الاتي ، من الغيب المقدس ، فيدرك وجوده المقترن بالايمان بالرب الرحيم وحده...

وقد لا يدركه ابدا ، فيفاجاه الموت والقدر ، حينئذ نرسم نحن صورته ، ولكن دون ادراك لها ابدا، لان الحقيقة تسكن في جوفه وحده ، وهو الوحيد الذي يمتلكها ويستطيع ان يخرج مكنونها الى الملأ او النور ، ولا يمكن لنا نحن الغرباء ان نغوص بحثا عنها ولكننا نحاول والمحاولة تجربة انسانية اخرى ، لها مقومات وابعاد واسباب خاصة ، بحاجة الى من يحاول ان يرسمها من جديد ، وهكذا هي الحياة دوامة لا تنتهي ابدا.

فضلا عن ذلك يمكن لنا ، ان نعد تلك الدراسة النقدية او الادبية في جنس فني شائع له متلقون كثر محاولة ... ومحاولتنا في الولوج الى اعماق قصية في شخصية كمال – بطل رواية غسق الكراكي – هي ايضا تجربة بحاجة الى قراءة متأنية ، فهو شخصية مركبة ، كان الاغتراب سمة من بين سمات كثيرة لها ، ولكنه المحرك لكل الاخريات من سماته .. لانه الحقيقة او الجوهر او الباطن او السر الذي يشعل الحياة ويحركها في الوقت ذاته ، ولكن باتجاه محدود ومعلوم وبوعي تام.

فالاغتراب في الرواية العراقية – غسق الكراكي انموذجا – الدراسة النقدية التي بين يديك ، هي دراسة نقدية ادبية وانسانية في الوقت ذاته ، لانها تناولت موضوعا شغل المجتمع العراقي ، وعاشه العراقيون بمرارة ، وقسوة كبيرة ، وبانطباعات متغايرة ومتضاربة احيانا ، وقد شكل جزءا مهما واساسيا من حياتهم واهتماماتهم ، هذا الموضوع ابرزه وسلط الضوء عليه نص روائي كتب بلغة شعرية عاطفية انفعالية صاخبة ، لها أثر كبير في المتلقي العراقي ، لانه اساسا عاشق وهاوٍ للشعر منذ نعومة اظافره ، وعبر التاريخ ، ومازال كذلك.

وحتما سيلح على المتلقي لهذه الدراسة سؤال عنيد : ما الموضوع الذي تناولته رواية / غسق الكراكي ؟ والشاغل للعراقيين جميعا ، واجيب مَنْ غيرها ؟

انها موضوعة الحرب التي عاشها العراقيون بكل تفاصيلها ، فهي تطابق واقعا عشناه جميعا ، ولاسيما من خاض الحرب بكل مرارتها..

فهذه الرواية اعادت ذاكرتي لايام مضت قبل اكثر من ثلاثين عاما فاستذكرت الشهداء ومواقفهم، والجرحى ودمائهم وقصصهم ، والمقاتلين ومعاشرتهم وحيثياتهم ، والمعاناة وانواعها ، من الخوف والموت وما يتركه من هلع وقلق ضاغط ، وسهر وكوابيس وجوع وعطش وعرق وصبر مج علقم لامر تكره النفس وتقذفه كالقيء ، نحن الذين سرقت الحرب سنوات ليست بالقصيرة من عمرنا ، وخلفت ما خلفت من ماسي ودمار لا يزول على مستوى الانسان والوطن ، ان كانت الحرب العراقية الايرانية ، او احتلال الكويت ، أو الحصار الهالك ، أو حرب امريكا ، فكلها لم تترك الا العلقم والمرارة إنسانيا وأخلاقيا وذاكرة لا تمحى أبدا ... ولهذا كانت غسق الكراكي اختيارا لهذه الدراسة النقدية ، بدء من الدلالات اللغوية والاصطلاحية للاغتراب ، حتى محاور الدراسة:

الأسباب والملامح والنتائج وكالاتي :

الاغتراب لغة : (والغرب ، الذهاب والتنحي عن الناس ، وقد غرب عنا يغرب غربا وغرب واغرب وغربه واغربه نحاه ، وفي الحديث ان النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم امر بتغريب الزاني سنة ، اذا لم يحصن ، وهو نفيه عن بلده ، والغربة والغرب : النوى والبعد .. وغربه وغرّب عليه تركه بعدا والغربة والغرب النزوح عن الوطن والاغتراب .. قال المتلمس :

إلا ابلغنا افناء سعد بن مالك رسالة من قد صار في الغرب جانبه

والاغتراب والتغرب كذلك ، تقول منه تغرب واغترب وقد غربه الدهر ، ورجل غرب، بضم الغين والراء، وغريب عن وطنه ، والجمع غرباء والانثى غريبة...)[1].

ومن هنا فالاغتراب لغة وجه من وجوه الغربة ، والبعد عن الوطن ، أو عن الآخرين ، ولا يخرج المدلول الى ابعد من ذلك.

اما اصطلاحا: فقد تلمس بعض النقاد ، دلالات الاغتراب واستخداماته قديما وحديثا[2].

فهو عند اليونان يتعلق بحرمان الانسان من حقه القانوني والطبيعي او انه حالة اغتراب الانسان عن موطنه او محيطه الاجتماعي ، وحتى المعنى الديني : بدأ بمفارقة الانسان موطنه الذي نشأ به اول مرة، أو الجنة التي سقط منها الى الارض[3] ... وفي كلتا الحالتين هو انفصال مكاني ، اما المعنى اللاتيني للاغتراب فهو بمعنى: (ذلك الذي لا يمتلك ذاته)[4] ... او هو عند بعضهم انفصال الذات عن ذاتها ، لتغترب كاخر ، او انفصام عن العالم لتغترب عنهم[5] . او هو مثلما نقل عن ريتشارد

شاخت في كتاب الاغتراب : يغترب يعني حرفيا يغدو غريبا. أو يجعل شيئا ما ملكا لاخر ، انه حالة للوجود الانساني ، حالة كون المرء مغتربا أو مفارقا لشيء أو شخص ..)[6] .

في حين ان فتح الله خليف يستدل على ان : المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للاغتراب واحد : الغرب والغربة والاغتراب كلها في اللغة بمعنى واحد هو الذهاب والتنحي عن الناس ، وكذلك في المعنى الاصطلاحي..)[7] . ولكن الشائع لمدلول الاغتراب ، مثلما يحدده الدكتور قيس النوري هو : كثيرا ما يعطي لفظ الاغتراب دلالات العديد من الاصطلاحات الاخرى المتداولة حديثا ، كالانسلاخ عن المجتمع ، والعزلة عن المجتمع والعزلة او الانعزال ، او عدم القدرة على الاندماج في المجتمع ، وكذلك عدم الشعور بالانتماء او عدم الشعور باهمية الحياة في عمومها بما في ذلك الشعور بالاحباط وغيرها[8].

ونرى ان هذا التحديد الاخير للاغتراب ، تحديدا موافقا لما نعمل عليه ، في قراءتنا لشخصية بطل رواية غسق الكراكي لمؤلفها سعد محمد رحيم ، وان كانت الموسوعة الفلسفية العربية ، قد حددت الاغتراب باوسع من ذلك ، بوصفه مفهوما يتفرع الى ثلاثة اقسام رئيسة ، اول المعاني : ((التنازل عن الملكية لصالح اخر ، وثانيا : يعني الاضطراب العقلي الذي يجعل الانسان غريبا عن ذاته ومجتمعه ونظرائه ، وثالث هذه المعاني هو غربة الانسان عن جوهره ، وتنازله عن المقام الذي ينبغي ان يكون فيه ، وعن عدم التوافق بين الماهية والوجود))[9] .

ولما كان الاغتراب حقيقة سلوكية حياتية يعيشها بعض الافراد في المجتمع ، لاسيما وهو انكفاء ذاتي يمثل: (رمزا من رموز الخلاص من المواجهة مع المحيط)[10]. فهو اذا ملمح كائن وموجود في الادب شعرا ونثرا ، لان الادب لوحة تعبيرية للحياة ، وان اختلفت الاسباب والمعطيات والوجوه والبيئات ، ولكن يبقى دور الادب هو: (الكشف عن مجموعة الحقائق التي تمثل هذه الحياة والتي تشكل علاقة الانسان بها)[11] .

والرواية في العصر الحديث هي الجنس الادبي الشاغل لعقول الناس لا لشيء الا لانها صورت الحياة تصويرا ثريا تفصيليا ، مما ترك اثرا واضحا في المتلقي وهو ما جعلها تشغل حيزا كبيرا من اهتمام الادباء والنقاد عامة.

والشخصية أو الشخصيات بشكل عام هو العنصر الرئيس القائمة عليه اي رواية ، لانها تشكل المصدر الاساس للاحداث ، لانها تنتج افعالا تترابط فيما بينها بعلاقات سببية او زمانية ، وتتبلور هذه الاحداث في الزمان لتكون حدث الرواية ، وكلما كانت الشخصية ثرة بافعالها وافكارها ، ارتقى الحدث ليماثلها ثراء وغنى[12] .

ولكن الشخصية في الرواية الحديثة . (تعيش وضعا فكريا اشكاليا فهي منقسمة على نفسها بين ان تحيا حياتها الخاصة وبين ان تذوب في وسطها الاجتماعي ، وان تؤمن بقيمه ومثله، فان انصاعت لمثلها الخاصة ، عزلت عن المجتمع ، وافرزت عنه ، لان وعيها الخاص يتقاطع مع الوعي العام ، وان انخرطت في وسطها الاجتماعي ، افتقدت فرديتها التي هي السمة الاساسية في تكوينها) [13] .

وقد تكون للاشكالية اسباب اخرى ، وهي عادة تنبع من التعامل مع المحيط ، أو مع العالم الخارجي سلبا أو إيجابا ، ومن هذه الاشكالية الوضعية ، يولد السلوك المتفرد للإنسان ، وأمام متغيرات الاشكالية وتباينها في الاسباب ، وتعدد وجوهها ، وقف الادب كثيرا، أو استطاع ان يقدم لنا صورة متعددة ومتغايرة للحياة ، وانعكاساتها في المبدع ، واساليب صياغة الحدث والشخصية بوجه جديد ، ولكنه لا ينسلخ عن واقع الحدث والشخصية الحقيقي في الحياة ، تمام الانسلاخ وانما لابد من وجود علاقة ما.

والاغتراب سلوك انساني في الحياة والادب صنعته هذه الاشكالية ، واوجدته دوافع واسباب اخرى ، ومن المؤكد ان الاغتراب يعود الى عوامل ذاتية وموضوعية ، وعوامل روحية ومادية متداخلة ، كما ان قهر الاغتراب ، كامكانية يرتبط بسلسلة من العوامل الذاتية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .. لذلك يمكن القول ان ثمة عوامل صغيرة جدا ، او غير معروفة ، او لا شعورية ، غير معروفة حتى من قبل الانسان نفسه ، قد تكون محرضا فعالا في تقرير اختيارات الانسان وانتهاجاته السريعة او طويلة الامد[14] .

ورواية غسق الكراكي رواية شخصية ، مع انها جزء من ادب الحرب في العراق ، وساقوم بدراسة الاغتراب في رواية غسق الكراكي من خلال دراسة شخصية (كمال) بطل الرواية ، وهو الشخصية المحور والاساس في بناء الرواية كلها ، من خلال تتبع الشخصية اعتمادا على مباحث ثلاث هي :

1. أسباب الاغتراب
2. ملامح الاغتراب
3. نتائج الاغتراب

الأسباب :

لكل سلوك انساني سبب ودافع واثر يصنعه ويوجهه في الحياة .. ومن اهم اسباب اغتراب (كمال) ذلك الحريق الذي التهم امه وشقيقته ودار سكنه كاملة وهو صغير السن .. حريق اشعل حياة كمال من حرائق كثيرة ولكنه الحريق الاول وقد اكد الكاتب على اهمية ذلك الحريق الذي اشعل حياة

كمال والرواية ، وكان له اثر في كل التفاصيل ودافع مهم في توجيه الشخصية (شخصية كمال) نحو الاغتراب فيقول: (وخبر رؤيا حريقه الاول لما التهمت النار امه واخته في ضحى يوم قاس بعيد[15]).

فهو حريق بدأت الرواية به وان كان بعيدا في زمانه اي في بداية حياة كمال لانه حينها كان طفلا صغيرا ، وكان المؤلف يجعل من الحريق سببا أولا في توجيه حياة (كمال) وذو اثر فعال في صنع شخصيته . وهي حقيقة واقعية فحين يفقد الانسان الام والشقيقة الوحيدة يفقد الانسجام مع الواقع ويفقد التفاعل مع العالم الخارجي او مع الاخر ، فيشكل الفقدان عقدة اولى تعقد كل تفاصيل حياته الكبيرة والصغيرة.

فهو نتيجة لهذا الحريق لم يبق له رفيق حياة او سقف دار يكون له بمثابة الامان والاستقرار فعاش في دار عمه ، فكيف وقد بقي وحيدا بعد اعتكاف ابيه وانعزاله متأثراً بالحريق .. اي ان الحريق لم يؤثر في كمال فقط وانما في شخصيات الرواية عامة ومنها الأب (وسنتتبع ذلك في هذه الدراسة) بحيث اننا وجدنا الحريق الاول قد اخذ حيزا كبيرا من متن الرواية فكان سببا وأثرا وموجها وكذلك منظرا انسانيا اليما فيقول (الراوي / المؤلف) : كانت النار تلوك الأشياء وتخرج السنتها الشيطانية من النافذة ، وعشرات الدلاء والقدور المملوءة بالماء تتلقفها الايدي وتسكبها في الشدق الجحيمي الفاغر. صرخ كمال وهو يضرب الشاب بقبضتيه الصغيرتين في صدره.

((دعني .. دعني))

وشرع يبكي :

((اين امي .. اين زينب.))

وانفجر صوته :

((ماما .. زينب))

وتنبهت الى نفسي. اذ كان جسمي طوال الوقت يرتجف ، وكنت ابكي . اخمدت النار، وامتلا النهار الخريفي القصي ذاك برائحة شواط لحم بشري وجثم على البلدة ظل الكارثة واغمي على كمال)[16].

ولما كان الحريق منظرا اليما وصل الى حد الكارثة فقد ترسخ في مخيلته فاصبح أثراً ضاغطاً على حياته وسببا في اغترابه ثم حلما نزفا يطارده وقد كتب ذلك في واحدة من أوراقه (اوراق الماء.. اوراق النار) وقد عد الباحث تلك الاوراق بالاوراق المعلنة من شخصية (كمال) فيقول : (حلم نزق يطاردني دائما ، منذ حريق بعيد ... زهرة مخيفة تنبجس حمراء كاوية ، وتلاحقني..)[17]. في هذا النص تجسيد حي لشعرية التضاد في نص نثري روائي ، فقد اسس الكاتب لعلاقة تضاد بين الزهرة علامة (التفاؤل والحب والسرور والاشراق) وبين الخوف المقترن بالحريق كأن الزهرة تتفتح

كالجمرة الباعثة للنار والحريق وليس الزهرة الباعثة للعطر والرونق والجمال .. فعدت الزهرة جمرة وهو انزياح توسل بالتضاد لخلق الشعرية الجمالية ، اذا كانت الشعرية بمعناها المعاصر انزياحا او انحرافا عن معيار .. وهذه الرواية امتازت بلغة شعرية كثيفة جعلتها ميزة اولى في نص سعد محمد رحيم ... وحين نعود الى موضوع دراستنا نجد الراوي يوثق اثر النار مرة اخرى في احدى اوراقه التي وجدها (الراوي / الكاتب) بين دفتي كتاب (الف ليلة وليلة) وكانت مطوية ، ومرقمة من (1) الى (8) فيقول : (والنار في الجذور .. النار امامك ، والزنبقة من بعض تجسيدات النار ... الزنبقة الغضة في الجهة الاخرى للحلم ، .. هناك النار الكبرى النار دائما ونحن ننتظر ... وعمي يشد جلدة الدفء بحرارة النار ، والاطفال يتحلقون حولها ، كالفراشات ... لماذا تحب الفراشات النار؟ ام انها مرغمة..)[18] .

من خلال قراءة هذا النص نجد ان النار مثلما هي في الجذور فهي دائما امامه وضمن تلك الاوراق نفسها قد تكون نارا اخرى : (وعند ذاك الملتقى كانت النار كرة اخرى ... اطفئ نار غيضك في الدرب المظلم الوعر. وتشدك اليها كانك المنقذ المنبعث من رماد الخطيئة نقيا بافق انتظار مديد.)[19] ومثلما هي دائما امامه فهي عقدة شاملة له : (واندفعنا والنار في الجذور ، في الرؤيا ، بين الاضلع والعمود الفقري وسقف الجمجمة ، في الساقين ، ... ، وملنا ناحية الجنوب في مرتقى الحرائق وامي كانت هناك مع زينب)[20] ثم يحدد بقلمه وفي الاوراق الثمانية نفسها علاقة الحريق بالنار والنور قائلا: (وبين النور والحريق اصرة .. بين النور والحريق تضاد ، ودرب الحرائق قدر)[21] وهذا الاعتراف يؤكد ان قدره المحتوم الحريق دائما.

اما الكاتب العليم / الروائي فيحدد علاقة كمال بالنار والحريق في قوله : (كمال ابن النار.. يحمل حريقه في داخله ، ويتطلع ابدا الى الماء .. يتمزق بين النار والماء)[22]. ومثلما كان يتمزق متاثرا بحريقه الداخلي كان هذا الحريق كابوسا يذكره دائما بالموت في قوله : (كيف لكمال ان يهرب من ضرام الروح؟ ذلك اللهب القاسي الشرس الذي ينعكس من الحريق القديم ... حريق كوابيسه . النار تترقرق هناك ، في منبت عينيه .. انها تذكره دوما بالموت والفقدان)[23] .

في هذا النص خلاصة لاثر النار الحريق في كمال فان (النار – الحريق) تمثل الموت والفقدان ومثلما هي تحرق الروح ودواخل كمال فهي تحرق مستقبله وحياته كلها لانها جعلت من كمال يعيش الغربة والاغتراب في كل شيء .. هذا ما يقرره الكاتب في قوله : (يخرج كمال سيجارته الاخيرة .. يشعلها على حافات غربته .. غربة الحريق وغربة البحر الذي يحسه هادرا في صدره .. لكأن البحر بين ضلوعه .. هدير عات يفاقم الغيظ بالوحشة .. وحشة الغربة ونذر الرحيل)[24] نعم انها حقيقة وحشة الغربة ونذر الرحيل الحريق الموت . الحريق النهاية..

والحريق / النار لم يك له اثر في كمال فقط وانما في الاخرين بدءا من الوالد رشيد : (فجلس عمي على الارض بعينيين جاحظتين مرعوبتين وفك متدل)[25] .

هذا كان بعد الحريق مباشرة ، اما بعد ذلك فقد عاش الوالد في الجامع، وهومن قطع مستل (من اوراق كمال): (الا تقول ؛ ان أبي في الجامع .. اريد ان اراه . ستراه .. اصبر يا بني .. غدا او بعد غد سأخذك اليه ان شاء الله.

ومر الغد .. واليوم الذي يليه .. مرت ايام كابيه ....

كمال .. حان الوقت لأفي لك بوعدي واخذك الى ابيك ...

سرت الرجفة في داخلي ، وانتفض قلبي ، وغمرني احساس كالح بالحزن... بعدها قادني عمي الى دالية الجامع .. كان هناك رجل يغرز طرف مسحاته في التربة بحيوية لا تنسجم مع نحول بدنه ، وتقوس ظهره .. كان وجهه الى الجهة المعاكسة لنا ، لذا لم اتبينه ، حتى اذا اقتربنا منه راحت رجلاي تخوناننني .. همس عمي :

" رشيد ... شيخ رشيد "

فجاشت دموعي ... استدار بوجه مترب ولحية شعثاء ووجنتين شاحبتين وعيون غاض منها ماء الحياة .. بدالي وكانه خارج لتوه من القبر .. لم ينادني .. لم يقل شيئا

.. كان جامدا مثل نصب عتيق مشبع بالبؤس .

((– لماذا انت واقف هكذا ... اذهب وقبل اباك))

قال عمي هذا بنبرة مشروخة ، غير انني لم استطع ان اخطو اية خطوة .. كنت ابكي وابي غائم الاسارير ...

وجعلت انتحب ، وابي لا يريم

((لا حول ولا قوة الا بالله ...))

ادار ابي ظهره لنا ، واستل مسحاته ، وطعن بها الارض بحنق ، وفي طريق العودة قال عمي :

((كمال .. اسمعني جيدا ... والدك بخير الا ان وقع الصدمة كان شديدا عليه .. حالة مؤقتة .. بعد ايام ، ان شاء الله ، سيرجع الى طبيعته))[26] .

ان هذا المشهد يمثل حالة الوالد بعد الحريق وما اصابه من ذهول وضياع ذهني وعقلي وشرود دائم ، وهو الانسان الكبير سنا والمفروض ان يكون اكثر قدرة على التحمل والصبر ، فكيف في طفل صغير راى وعاش الحريق / المأساة بكل اتونها وانعكاسها عليه صدمة ومعاناة ومرارة.

اما اثار الحريق في الاخرين فكانت فيّ محمد الراوي /الكاتب قد تركت مشهدا مخيفا في قوله : (اجلس ازاءه ، والوجل فيّ مثل كومة من نمال صغيرة .. اتوجس من الحريق المرتقب .. رؤيا النار التي اخذت عائلة عمي رشيد الى الضفة الثانية المجهولة)[27] .

وكذلك عند جارهم القديم – العم خليفة :

(وما تزال رائحة شواظ تشم ، كما يقول جارهم القديم – العم خليفة – حتى يومنا هذا ، وبخاصة في الليالي التي يسكن فيها الهواء ، بعد ذلك الحريق الذي لم يبق من متاع الدنيا لتلك العائلة المنكوبة سوى صندوق خشبي)[28] .

اما عند ابي محمد / الراوي فالحريق بلوى ، يقول لابنائه وكمال نائم : (عاملوه كاخ لكم، ولا تذكروه ببلواه، ولا تحسسوه بانكم تشفقون عليه.. ستؤذونه ان فعلتم ذلك)[29] .. اذا فالحريق كان له اثر كبير لدى الاخرين الاقرباء منه وابناء مدينته .. ليتحدد اثر (النار / الحريق) في وعيه ونضوجه قائلا :

(يبدأ وعي كمال بالبزوغ بالتماس مع النار .. مرآى النار وهي تسلب منه امه واخته .. ويمر هذا الوعي بمحطات نار .. نار احتراقه حبا ، ونار الحرب التي ستحرق حواف روايته .. روايته التي لن تتم على الرغم من انه حلم بها طويلا)[30] .

ومعادلة (الحريق / النار) كانت لازمة مصاحبة لكمال حتى في لحظات الموت الاخيرة ، وهو يقذف الامريكان برمانة يدوية حرقته وحرقتهم معه:

(استل واحدة .. وهو يسحب حلقة الامان تذكر حريقه القديم – وهو يدور نصف دورة ويقوس ظهره ، ماسكا الكرة المحززة بقبضته العنيدة ايقن انه سيشفى حالا من كابوس النار)[31] .

فكابوس النار وحريقه القديم ، ادى به الى النهاية واوصله الى غضب رجولي ، خلق الاسباب المؤثرة الصانعة لموقف التحدي الشجاع الرافض للحياة تحت ظل المستعمر الاجنبي والعاشق للموت لانه يمثل الشهادة والخلود.

وفي الذكرى السنوية الاولى بعد الموت والرحيل لا يتذكره محمد ابن العم (الراوي – الكاتب) الا ويتذكر معه النار فيقول : " انها بقايا رجل غادر ، ايضا ، تحت وطأة رؤيا النار الى الضفة الثانية ، المجهولة ، .. اوراق مترعة بالكلمات ..."[32]).

وعليه فان (الحريق / النار)حرق حياة (كمال) وحاصر ايامه وتطلعاته وجعل عمره غربة دائمة ، فهي غربة حياة ، وغربة مشاعر ، فهي اذا اغتراب شامل عن الحياة والوجود لشخصية البطل الرئيس في الرواية ، البطل الذي شغل الرواية من البداية الى النهاية.

فاذا كان (الحريق / النار) سببا اولا في اغترابه ، فسارة الطفلة والفتاة التي ترعرعت معه وشاركت افكاره وايامه ، ابنة العم سببا ثان في اغترابه ، ولاسيما وهو وحيد بعد الحريق يبحث عن

رفيق لحياته وصدر حنون يحتضن همومه ولواعجه .. وتسائلت لماذا كانت سارة سببا في اغترابه ؟ الأنها ابنة العم الذي قضى معظم عمره معها .. الطفولة ، والفتوة ، والشباب .. ام لسبب أخر ولهذا أردت ان اعرف من سارة ؟ وكيف هي؟ وما شخصيتها؟ لكي امسك مستوى التاثير في كمال بحيث كانت سببا ثان لاغترابه ، وفي تحري دقيق داخل متن الرواية وجدت أوصافا عديدة لسارة تسلط الضوء عن قرب عن تلك الشخصية المؤثرة في (كمال) البطل ، نحو رأي الأم في قولها : (وبنت واحدة هي اجمل البنات) [33] . وفي موقف ساخر لا علاقة له بالحقيقة يرد عارف (الاخ العارف) على امه :(القرد في عين امه...)34). اما راي عارف الحقيقي في ساره فنجده في قوله : (ساره اشدنا حساسية ، وصفاء روح .. انها مثل الماء .. فالماء لغز كوني ..)[35] .

اما محمد (الكاتب – الراوي) اخوها فيقول في وصف متكامل لها : (سارة فاكهة الايام السعيدة ، المغرمة بالتنويع اللوني والموسيقى الهادئة .. بالتمر الهندي والكاكاو والنكات البريئة .. تاريخها ، تاريخ فتاة تغمس ابهامها في كيس تمر هند وتلحسها عبر سنواتها المجنحة التي مضت بوداعه مذ كانت تخطو متعثرة على البلاطات القرميدية في الباحة قبل ان تصب بالكونكريت .. شغفت بها امي لانها الابنة الوحيدة .. الشمعة الوحيدة التي هي من نوع اخر ، كما تقول : ((وكلكم شموع حياة))، وكان غيابها في بغداد خلال سنوات الدراسة الجامعية يترك اثرا مؤسيا .. فراغا ، كان البيت ليس هو البيت ، وعصر كل يوم خميس اذ كانت تجيء ، كان النسغ العتيق الحيوي يتواصل صعدا في كيان العائلة من جديد .. شهقاتها كانت وجيعة ، وهي ترى الدم يتدفق من خنصرها .. في الثانية عشرة من عمرها كانت ... ضئيلة وجدائلها السود تتدل على ظهرها النحيل ..))[36].

اما كمال فيصفها بقوله : (ان لسارة شيئا ما ، جد جوهري واسرا وفريدا ، وغير قابل للعطب ينتشلك على حين غرة من دنيا ولقيك في أخرى نقيضه وسامية وإنسانية)[37] وكانت ساره كالعادة محورا لحديث دار بين نبيل وكمال : (واستعدت صورة سارة وهي صغيرة، وبيدها التينة الناضجة ، وانا انهرها لانها جاءت الى هنا.

قال نبيل : ((سارة ، في صغرها كانت جميلة ، لكنها فقدت رونقها لما كبرت))

((–لا .. سارة تزداد حلاوة يوما بعد اخر))

((في عينيك انت .. استطيع ان اعد لك مائة فتاة اجمل منها في هذه البلدة الصغيرة وحدها))

((يكفي انني اراها جميلة)) [38] .

وهكذا كانت سارة جميلة دائما في عيني كمال ..

ويبدو ان كل الاحاديث مع كمال كانت ساره هي المحور والمضمون ، ففي حديثه مع قحطان: (الجندي المقاتل مع كمال في الجبهة الذي كان يشاركه الموضع القتالي نفسه): ((وبعد شهرين حين التقيت بقحطان ثانية . ونحن في مواضعنا المحررة ، سالني عن ساره : ((– اتحبها ؟))

ضحكت ، وادرك ان سبب ضحكي هو انني احبها

((وهي ؟))

((ما لها هي ؟))

وكان قحطان ذكيا ، ولم يتماد في طرح الاسئلة ، وحيرني تجنبه الخوض مرة اخرى في موضوع (ساره).

هل فهم قحطان ان سارة امراة ما احبها انا من طرف واحد .. وكدت اخبره ان المسالة اعقد مما يتصور))[39] .

وعليه فسارة رفيقة الطفولة وريعان الشباب هي شريكة افكاره وحياته ، وهي حبه الوحيد. فضلا عن انها ابنة العم القريبة التي كانت امامه وفي مرآى عينيه كل الوقت .. بل انها موجودة مع كمال حتى وهو يرتبط بعلاقة حب ذات نوع خاص بفتاة اجمل واكثر طراوة وانوثة وحياة وجرأة من سارة . ففي علاقته مع مها زميلته في الجامعة ،الثرية ، الجميلة ، الجريئة ، الارستقراطية ، ذات مستوى معيشي ومالي عالي جدا ، نجده يقول : (كنا نلتقي كل يوم في الجامعة ، فامضي معها الوقت كله .. ففي القاعة هي الى جانبي ، وفي الممرات والنادي ترانا معا على الدوام ، بيد ان هاجس انتظار الاثنين ظل يسكنني.

ولم انس سارة .. باتت وخزا ابديا في الاعماق)[40] .

وفي حواره مع صديقه الدائم نبيل عندما زاره في الجامعة دليل واضح لمكانة سارة عند كمال: (زارني نبيل في الجامعة وتعرف على مها .. قال لي بعد ان ودعتنا وغادرت الى البيت:

((– لماذا لا تتزوجها ؟)

((– وساره ؟))

((اي وهم ؟))

((– سارة ليست وهما ... انها اكثر حقيقة من اي شيء اخر في هذا العالم.)

((– ستبقى تدور في هذه الدوامة بلا جدوى .)

((– هي دوامة حقا ، ولكن لا خلاص لي منها .)

((– انت يا كمال صنعت فخا واوقعت نفسك فيه ... قيدت نفسك واعميتها ..

يا اخي انظر جيدا .. اين سارة من هذه النسئلة ؟))

((– اي نستلة يا نبيل ؟ مشكلتك انك لا ترى الا القشور.)

((– وماذا عند سارة في ما وراء القشور ؟)

((– في ساره شيء لا تملكه اي امراة في الارض .)

((– هذا الشيء هو من نبات مخيلتك المحمومة انت .)

((– ليكن ... فانا اراه حقيقيا ومؤكدا .)

وساره في برجها المستحيل الذي يمنعني عنه الف سور ومليون مصد .. فهي عصية وممتعة لانها قريبة جدا .. قريبة اكثر مما ينبغي . وتلك هي المفارقة الساخرة التي لا حل لها)[41]. اذا ساره كانت مدار كل الاحاديث الجارية مع كمال ، وتبقى في قربها الشديد وشخصيتها ذات اثرفي كمال بين وواضح جدا. وغير ذلك فهي طالبة جامعية ورسامة مرهفة وفنانة ... ساره التي كانت تحب الرسم في الطفولة ، ومن ثم طفولة الرسم[42].. كبرت ونضجت واصبح الرسم ملاذها الوحيد ، والمعبر عن رؤيتها الفكرية للحياة . فهي تسكب اساها ومخاوفها وخواطرها الدفينة في الرسم.. حتى اصبح الرسم جزءا مؤثرا في شخصيتها وافكارها[43] .

: (لا ادري ما الذي كان يمكن ان يحدث لساره لو لم تكن تمتلك ملكة الرسم.)[44] .

وكانت لوحاتها تعبير حقيقي عن معاناتها الانسانية : (عصافير مقتولة .. وقد تناثر ريشها ، فوق ارض بدت على وشك ان تنفجر عن خضره صارخة ، وفي الخلفية افق عاصف ، وطيور مقبلة)[45]

ثم لوحة اخرى : (عش فارغ بيد انه عامر ومتماسك على غصن يعج بالاوراق..)[46] .

ونخلص من هذا التتبع الدقيق لسارة في الرواية ، نجد انها عاشت مع كمال طفولة وشبابا واحدا ، شاركته دقائق العمر وتفاصيله في بيت واحد ، هو بيت عمه رشيد (والد ساره ومحمد / الراوي) بعد ان فقد امه واخته واحترق بيتهم (وهو ما زال صبي صغير) وهي ابنة العم الوحيد بين اخوة كثر ... سارة القريبة جدا ، الممتنعة جدا .. هي سبب غربته بقولها كمال صراحة في ساعة مكاشفة يائسة مع نبيل قلت : (ساره تجعلني اشعر انني غريب في البيت)[47]

وهي القائلة لكمال في مشهد ضابي غير مكتمل : (– اعرف حدودك)[48] وفي مشهد اخر لم يتسن لي وانا اقرأه منذ سنين ان افك رموزه.

وهو حديث زوجة عمه (ام ساره) التي كانت بمثابة ام ثانية له بعد ان فقد امه في الحريق القديم ، والحانية عليه اكثر من اولادها مع محمد / الراوي : (أختنقت في عينيها الدموع وتهدج صوتها : ((– نهرته ذات مره ، قبل سنين .. قلت له ؛ عيب ، انها ابنة عمك .. حمل حقيبته وغادر... قطع اجازته .. قال ؛ انهم اعطوه اجازة لخمسة ايام ، لا سبعة ايام مثل كل مرة .. اخبرته انني لم اقصد .. قال ؛ لا ، لا .. المسالة طبيعية وانك فسرت كل شيء خطأ ، انا اسف .. لم استطع

منعه .. ولم ينتظر ان اجهز له ما قسم الله من طعام وغيره مثلما كنت افعل ، في العادة .. قال ؛ في الاجازة القادمة .. خفت الا يعود ، غير انه عاد .. قال ؛ انه سليم النية .. فكرت ان اطرح فكرة الزواج على ابيك .. اختك اعترضت .. قالت ؛ انها لا تفكر بالزواج ، وان فكرت فقطعا لن تفكر بالزواج منه .. هكذا قالت))[49] .. ليعلق محمد / الراوي على كلام امه : (اية اشارة مقلقة تلك التي بثتها امي وهي تتكلم ؟ عم كانت تتحدث ؟ ماذا فعل كمال بالتحديد ؟ تلميحها تلك خلطت علي الاوراق..)[50]. وانا لم اعرف حقيقة هذا المشهد مثلما كان محمد / الراوي في تعليقه ... وبعد سنة من استشهاد كمال وفي ذكراه السنوية المقام لاجلها منقبة نبوية في بيت عمه رشيد ومع ايقاع الدفوف تصرح ساره لمحمد / الراوي .

((– من المؤسف الا نصل الى الوضوح الا بعد فوات الاوان))[51] .

ولكننا مسكنا الموضوع في اغتراب كمال ، وان سارة كانت سببا رئيساً في هذا الاغتراب . والبوح العلني والمكاشفة الصريحة ليست الا دليلاً بيناً وواضحاً على ذلك تدعمه الوقائع الاخرى والمشاهد الساندة والمؤثرة في خلق الاغتراب المكون البارز لشخصية كمال بطل رواية غسق الكراكي لسعد محمد رحيم.

ملامح الاغتراب

من الصعب ان تجد رجلا شرقيا اعتصرته الحياة واثقلت حاله الهموم ، ويعيش في ظل اعراف وقيم اجتماعية تقيده في سلوكه وكلامه ان يصرح او يكشف عن غربته او اغترابه امام الاخرين.

ولكننا نجد بعضا من ملامح اغترابه العلني يسرها للاقربين جدا والموثوق بهم ، لانني ارى انها تخنقه ان لم يبح بها ، وهي قليلة جدا او تكاد تكون نادرة في الرواية ، ولما كان الاعتراف سيد الادلة مثلما هو مشهور ، فسنلتقط تلك الاعترافات الملامح ، لنستوقفها نقديا في ابراز الاغتراب المعلن في الرواية وكالاتي :

لقد صرح بدءاً بحبه للحزن في احدى مصارحاته لمحمد / الراوي النادرة بقوله : (احب المطر، قال ذات مرة لانه حزين ، واحب السياب ، لانه قال ما اقوله الان بشكل مؤثر...))[52] هذا النص يعطينا مفتاحا لولوج الحزن الذي يخيم على كمال والخالق حتما لغربته واغترابه..

حتى يتطور الاعتراف في قطع محدود من الورقة الخامسة في ((الصندوق مدار اول)) وهو : (قال لي نبيل ذات مرة ، ان كمال اسر له : ((ما يثقل علي دائما هو احساسي باني غريب على الرغم مما فعلوه من اجلي .. حد بهم وحبهم وحرصهم وشفقتهم .. هذا كله يشعرني بالعرفان تجاههم ويمنحني بعضا من عزاء ، لكنه ابدا لا يجتثني من هذا الشعور الكاسح المزمن المرير باني غريب ، وبانني راحل في يوم ما))[53] وهذا اعتراف لا غبار عليه في شعوره بالغربة / الاغتراب ثم خوفه من

الموت الرحيل وهو امر حتمي بديهي في حال مثل حال كمال وهو يحس ويشعر بالغربة / الاغتراب المستمرة.

ويجدد الاعتراف لنبيل مرة ثانية في (اوراق العشق – اوراق التيه) في الورقة الثانية ... وهو يتحدث عن سارة وانها تشعره بانه غريب في البيت قائلا : ((صدقني يا نبيل .. انا الان مثل طائر الكركي ، حل موسم هجرته ولم يرحل فبقي وحيدا ، غريبا)) [54] .

ان هذا الاعتراف يحدد لنا اثر الفقدان المتاتي من فقده لامه وشقيقته الوحيدة من ذلك الحريق القديم ، ثم احساسه بعدم استطاعته امتلاك قلب سارة ... الحبيبة التي يحبها من طرف واحد ... فترسخ لديه شعور الوحدة ثم الغربة / الاغتراب وهو اعتراف يصنع لدينا ملمحا بارزا من ملامح اغترابه .. وبعد ذلك وفي رحلة محمد للبحث عن اسراره في حياة كمال ، ومن الورقة الاولى من عودة الكراكي .. ومن لقاء صاخب مع الشيخ عبد العليم (امام الجامع) الذي كأن يزوره كمال في اوقات كثيرة ، ليعترف بهمومه واخطائه امامه .. كانه اعتراف تطهير ، فيقول الشيخ عبد العليم : ((ذات مرة اسر لي انه يحس بالوحدة .. بوحدة قاتلة كان بينه وبين العالم الف حجاب وحجاب)[55] .

وهذا الاعتراف بالوحدة القاتلة ، اوقف عجلة الشك لكل متتبع لاغتراب كمال – بطل رواية غسق الكراكي – وهو الدليل القاطع الذي يدعمه ويعززه اعترافه بالرغبة بكتابة رواية هاجك وهو مع انه نتيجة للاغتراب فهو ملمح من ملامح الاغتراب وهو الاخير في اوراقنا تلك من ملامح اغتراب كمال ، في هذا الحوار عن هاجك : ((– لا .. هو لم يكن يشبههم في شيء سوى في امر واحد . الوحدة ، وهاجك كان وحيدا ابدا.))

صفنت قليلا قبل ان افاجئ كما لا بسؤال صادم :

((– كمال .. هل تشعر أنك وحيد أبداً))

((– ما الذي يجعلك تسالني مثل هذا السؤال؟))

((– اجبني ..))

((– قل لي انت ..))

((– كمال ؟! ..))

((– انتم اهلي .. وانت اخي وابن عمي وصديقي))

ومنذ ذلك اليوم وقعت على تلك الزاوية الظليلة من روح كمال ، وشهدت للحظة ، اضطرابها السري ، وشجنها المعقد ، وخوفها من المجهول.

ما الذي كان كمال يبحث عنه وهو يهم بالكتابة عن هاجك ؟ ماذا غير الوحدة ؟ وهل كان يعرف عن هاجك ما لم نكن نعرفه نحن ؟ ام تراه اقتض معنى سريا من تلك الحياة الوحشية المغفلة؟ ام انه اسقط

تصوراته عن نفسه وعن العالم على حياة هاجك ليستخلص مغزى وهميا لم يكن يوجد الا في ذهنه ، ساعيا الى كتابة روايته من خلال رواية هاجك؟!)[56] .

ان هذا النص الحواري .. يمنحنا ملمحا ونتيجة في اغتراب كمال بطل رواية غسق الكراكي .. وسنعتمده في الملامح والنتائج . في قراءة نقدية سابرة لغور النص ومضامينه في هذا السرد الشعري المبدع.

نتائج الاغتراب

بعد ان تتبعنا اسباب الاغتراب وبعدها ملامح الاغتراب ، سنكمل هذا التتبع النقدي في عمق الرواية وشخصية كمال ، للوقوف على اهم النتائج المترتبة من الاغتراب.

أولى تلك النتائج انقياده الى التيه ، وذلك في بحثه عن التعويض عن الفشل فامام فشله في الوصول الى قلب ساره ، ذهب للبحث عن اللذة وعن الحب والجسد في مكان اخر ، حتى لو كان في مخيم الغجر ، والمؤلف ذكر لنا السبب والنتيجة في هذا النص / الحوار ، فيقول : ((خالتي نسيت اغلاق الباب ، او انها ابقته هكذا ، نصف مفتوح ، فاستغرقتني النافذة – الفراشة ، وعبرها نظرت .. كان الجسد هناك يتشكل من جديد .. كانت المزق تندغم وتتناغم ، وكانت اسراب محلقة من فراشات ملونة مثل تلك التي فتنت ساره ، يوما ما ، قبل مئات السنين الضوئية فرسمتها بالقلم الرصاص.

قال نبيل : ((– أبدأ من جديد .))

قلت : ((– اصعب ما يواجه الانسان هو ان يضطر للبدء من جديد.)) [57] .

ولما كان الاضطرار هو البدء من جديد في علاقة ما وأية علاقة ، نجد نبيل يرشده الى السبيل – الطريق نحو التيه ، يقول : ((– تعال نتسلى .. قد يكون هذا حلا .. حلا مؤقتا على الاقل .))

تعال ، وكنت اعمى وانا انقاد الى التيه .. كنت في حالة انفصال عن ذاتي ، وتوق طعين يلتهب في قفص الروح ، وكان المشهد اشبه ما يكون بمهرجان هزلي .. خيم ، وبشر من كل نوع ، ومساومات مخجلة ومضحكة .. قلت : ((– اخشى من الفشل .. انا لم اعمله ابدا))

((– لست انت الذي ستعمل يا عزيزي ، بل كائن اخر هو في داخلك .. مدرب بالوراثة وله خبرة ملايين السنين)).

ودخلت الخيمة .. كانت جالسة في شبه العتمة ، صدقت فيها فاطلعت كلمة بذيئة جعلتني انفجر مقهقها. ابتسمت ونفضت عنها ثوبها .. وتصالبت امامي معبدا للغواية لا يرد نداؤه ، فاغمضت عيني ... جرتني اليها وانشغلت بالازرار تفتحها واحدا واحدا ، وتحطم القمقم .. خرج مارد لعين ، كان عطش لا يحتمل يكويه منذ بدء الخليقة) [58] .

ثم تتحول هذه التسلية مع امراة يطأها مئات الرجال يوميا الى لهفة عارمة ، وعلاقة جسدية حيوانية ممتعة ، ثم تتحول الى اخطر من ذلك ، الى ما لا تحمد عقباه.

: (وعدت .. وفي الاجازات التالية صارت تستقبلني بشغف لاظ.

قلت لها في ساعة انتشاء مسكر :

((– هل تتزوجينني؟))[59] .

وهكذا ونتيجة الاغتراب والفشل مع ساره ومع الحب ، تتحول اللذة / المتعة الجسدية الفارغة في مخيم الغجر مع صبرية المومس الى ملاذ دائم ومهووس ، غير مقبول وممنوع اخلاقيا واجتماعيا ، فتجد المرشد ابتداءا والدليل الحافز الى الخطيئة / التسلية يتحول الى مانع ورافض للاستمرار.

: (وقال نبيل : ((– حان الوقت لتقطع صلتك بها .)

((– لا استطيع)

((– ستفقد نفسك من اجلها)

((– انت ورطتني)

((– يا كمال .. المئات يذهبون الى هناك ، ويكتفون بالمتعة .. هل سمعت بمجنون عشق مومسا غجرية وفكر بالزواج منها))[60] .

ولولا نبيل لوقعت الكارثة في هذا المغترب عن نفسه وعالمه المحيط ، ولكان قصة تحكى للاجيال في مدينة محافظة ، وكل ذلك نتيجة للاغتراب الذي خيم على حياته وهي نتيجة اولى .. وتعقبها نتائج ولكنها تختلف في سياق وجودها ، فالنتيجة الثانية فكرية ابداعية .. هي حاجته لكتابة رواية.

: (بعد سنين اسر لي كمال :

((– اريد ان اكتب شيئا عن هاجك ... ربما رواية .

((– ماذا ؟))

((– نعم .. بالرغم من انه كان كائنا استثنائيا في شكلة وغرابة اطواره ، ارى ان في حياته مغزى ما

((– كيف ؟ هاجك كان مثل كل البلهاء في هذا العالم .. حياته خاوية خالية حيوانية .. عن اي مغزى تتحدث .

((– لا .. هو لم يكن يشبههم في شيء سوى في امر واحد .. الوحدة ، وهاجك .

كان وحيدا ابدا.

صفنت قليلا قبل ان افاجيء كمالا بسؤال صادم :

((– كمال .. هل تشعر انك وحيد أبدا ..))

((– ما الذي يجعلك تسالني مثل هذا السؤال ؟))

((– اجبني ..))

((– قل لي انت ..))

((كمال ؟!))

((– انتم اهلي .. وانت اخي وابن عمي وصديقي .))

ومنذ ذلك اليوم وقعت على تلك الزاوية الظليلة من روح كمال . وشهدت ، للخطة ، اضطر بها السري وشجنها العقد ، وخوفها من المجهول.

ما الذي كان كمال يبحث عنه وهو يهم بالكتابة عن هاجك ؟ ماذا غير الوحدة ؟ وهل كان يعرف عن هاجك ما لم نكن نعرفه نحن ؟ ام تراه اقتنص معنى سريا من تلك الحياة الوحشية المغفلة؟ ام انه اسقط تصوراته عن نفسه وعن العالم على حياة هاجك ليستخلص مغزى وهميا لم يكن يوجد الا في ذهنه ، ساعيا الى كتابة روايته من خلال رواية هاجك؟![61] .

وبعد سرد هذا النص / الحوار الطويل ، يبرق لنا سؤال بحاجة الى جواب .. هل هذه الرواية عن هاجك ؟ التي رغب كمال ان يكتبها ، هي رواية كمال نفسه ، لان هاجك وحيد مثله ، ويعده شبيه له ، والوحدة علاقة المشابهة بينهما ، هي التي خلقت الاغتراب والجنون لكليهما ، فالاول مغترب عن ذاته وعن محيطه ، والثاني مجنون ، فهو مغترب ايضا . ولان كليهما يعاني الفقدان والحرمان ، فالاول فقد الانسجام مع الما حول او مع المحيط الذي يعيش فيه ، والثاني فقد العقل وبالضرورة الانسجام مع الاخر.

وعليه فما رغبة كمال بكتابة رواية عن هاجك الا رغبة عارمة للكتابة عن نفسه وراء اسم هاجك .. ولكن الموت كان اسرع من كتابة رواية (هاجك /كمال) التي كتبها بعد ذلك محمد نيابة عن كمال ، وهي النتيجة الثانية لاغتراب كمال.

اما النتيجة الثالثة ، فهي نتيجة وجودية ، حيث اسكنت الحياة والاغتراب معا. ففي الورقة الثانية من اوراق المفتاح ، نرى المؤلف قد حدد اختيار كمال للموت بدلا من الحياة ، في مشهد سردي متكامل .. ونتسائل مع ذلك المغترب عن نفسه. كيف كان مشهده الاخير ؟ .: (في حوض العجلة .. على اكوام الاشياء ، كان يجلس مع ثلاثة جنود اخرين .. لم يتبادلوا سوى كلمات قليلة ، والصحراء تعتم رويدا رويدا مع هبوط مساء الشتاء ، وقدوم طلائع سحابات الزيت المحترق)[62] .

وما الذي جرى ؟:

(انفجرت قنبلة على مسافة امتار ... غير السائق مسار العجلة ... انفجرت قنبلة ثانية ابعد من سابقتها ... زاد السائق من السرعة .. انفجرت قنبلة ثالثة ، شاهد دخانها يتصاعد خلف العجلة ، وشظية تمزق قماش الحوض.

فكر كمال ان يزحف الى نهاية الحوض ليتكلم مع السائق ، ومع الضابط الذي يجلس الى جواره في صدر العجلة .. وضع راحة يده على صندوق صلب ، والتفت بنصف جذعه فارتج بصوت هائل ، ناري كل شيء ، وانقذف كل شيء.

رفع رأسه ، واحس كما لو انه اجتاز هوة خارج الزمان ... كانت العجلة تحترق على مسافة اربعة امتار منه ، وهو ممدد على بطنه ... لم يخطر له انه ربما اصيب .. اراد فقط ان يستعيد رؤيا الانخطاف تلك..الانفجار، وخروجه من جوف الحريق)[63] .

وماذا كان يحس ويرى في تلك اللحظة؟ :

(طنين غريب يلف الافق .. طنين نازف في الفاصلة المصمتة بين قيامتين – قيامة الهباب وقيامة الصهيل هباب ينصب خيمته الهائلة ، وصهيل يجلد الصحراء ، اما البحر ، فيسمع كمال نواحه المؤسي الرتيب، ولا يراه.. انه هناك... على مقربة منه.. ذاهل في السواد، وسادر في الغموض)[64] .

اما سلوكه الاخير فكان :

(يخرج كمال سيجارته الاخيرة .. يشعلها على حافات غربة ... غربة الحريق وغربة البحر الذي يحسه هادرا في صدره ... لكأن البحر بين ضلوعه .. هدير عات يفاقم الغيظ والوحشة ... وحشة الغربة ونذر الرحيل .. وقبل ان يكمل تدخين سيجارته يرى ست طائرات سمتية تطلع من سواد الزيت المحترق ... ست حشرات ضخمة تحط في شكل قوس ، وينزل منها عشرات الجنود ... يركضون ، ويشرع المطر بالانهمار)[65] .

وفي تلك اللحظات العصيبة والاخيرة ، كيف كان كمال يرى نفسه؟ :

((يرى كمال نفسه وحيدا امامهم ، وبندقيته فارغة فيلقيها ارضا. كانت المراوح ما تزال تدور ، وكانوا قادمين نحوه ... تحسس في جيب قمصلته الرمانتين اليدويتين ..

كان وحيدا ، ولكن ضاجا بصاصاة الزرازير ، وبعطر ورود الرازقي التي احبها ، وتهيأ له ان على اطراف اصابعه بقايا من رذاذ طلع النخيل. وفي هذه اللحظة ، تذكر امرين – ربما – ساره والمفتاح)[66].

وبعد ماذا استذكر أو خطر في باله ؟ : (كان في المطر رائحة الزيت .. تخيل الكراكي مداهمة بلون الموت هذا – في سعديته البعيدة – بين القصب واسيجة البساتين .. بين جدول داود وشط ديالى)[67].

وبعد ان مرت استذكاراته عجلة خائفة ، ماذا كان قراره الاخير ؟ :

(لم يدر بخلده ، في ذلك الموقف ، ان يرفع يديه ، ولم يفكر بالهروب)[68].

لانه لام يتشبث بالحياة وكانت لا تعني له شيئا ، لم يهرب والهروب كان الحياة ، اما الموت فهو خيار القتال ، وكان كمال هذا خياره ، (فكان يتحسس في جيب قمصلته الرمانتين اليدويتين ، والمطر

ينهمر، والمساء يتحدد مبكرا ، وما كان كمال يشعر بالسعادة ، أو بالتعاسة ، أو بالخوف ، أو بالفرح ، أو بالحزن ، أو باليأس ، كان كمال غاضبا فقط . اكاد اراه الان ، في احتدام غضبه ، مع حد التوتر حيث يصب التفكير والشعور والاحساس والرغبة في مجرى واحد ، وحيد .. نحو غاية بعينها .. يختزل الكون والحياة والوجود والمصير في ذات ، وفي ما يهدد هذه الذات شيئان .. قطبان .. عنصران .. عالمان .. أل (أنا) ، وأل (آخر) الذي يسعى لالغاء ال (أنا) . كان الحريق ، هذه المرة يحاصره .. مرأى النار المضطرمة ، والتنانين التي اخرجت السنتها ، وصنعت قوس الموت) [69] .

وماذا ابصر في تلك اللحظات الأخيرة ؟ :

(وابصر كمال ، في لحظة تجل ، حبيباته الفزعات تلاحقهن كائنات الدخان .. قال في سره ؛ اذا هو الكابوس .. كان الكابوس – ابدا – شيئا مبهما ، عصيا على الادراك.. شيئا قاتما ووحشيا وكريها.. كان الكابوس ثعالب رمادية بانياب من نار.. مخلوقات بشعة تثير الرعب والغثيان... وكان لا يزال يتحسس القنبلتين في جيبه)[70].

وماذا فعل؟: (استل واحدة .. وهو يسحب حلقة الامان تذكر حريقه القديم .. وهو يدور نصف دورة ويقوس ظهره ، ماسكا الكرة المحززة بقبضته العنيدة ايقن انه سيشفى حالا من كابوس النار. كان البحر قريبا..كان الماء ينشج بحرقة وعذوبة)[71].

وفي تخلخل لمستويات السرد يتخلى الراوي العليم عن دوره لاحتمالات يتصورها ، وهو نقض فني لدوره في الرواية ، فيستعمل سياق ، اكاد اراه ، فكيف يراه : (اكاد اراه .. يدور نصف دورة ، ويقوس جذعه .. يحشد الدرجة القصوى من الغيظ والقوة .. يصرخ ويقذف بالرمانة اليدوية ... مراوح السمتيات ماتزال تدور امام خلفية من غمامة قاتمة ورماد وحشي والجنود الامريكان يوقفون ، في ذهولهم ، هرولتهم المتعجرفة ، وينحنون .. ينحنون لاتقاء الشيء القادم ، فتتكفئ بنادقهم . الشيء اللامتوقع ، الطائر الذي سينفلق ، في الحال ، يبعث صوت انفتاح قفل الموت .. موتهم .. صوت صاف ، حازم ، يسمع على الرغم من الضجيج الذي يحدثه تهشم الغروب ، اما الانفجار فيبعثرهم مثل نافورة ، في حركتها اليائسة ، الاخيرة ... وينبطح كمال)[72] .

ليكرر تصوره لشجاعة وتحدي وارادة كمال في تلك اللحظة الاخيرة ، باستعمال متكرر لسياق ، " اكاد اراه ": (اكاد اراه .. جسمه الباسق يقوم من انبطاحه يدور نصف دورة اخرى ويتقوس ، وبينما الشيء المحرق الطائر يحلق في اعلى ذروته الفيزيائية ، وصرخته الثانية تتصادى في الافاق ، تتواصل رشقات الرصاص . اكاد اراه .. جذعه الذي تقوس يستقيم الان .. اليدان تشرعان ، وتتفتح ازهار الجروح ، ويتلألأ الدم .. جروح كثيرة ، وصوت انفتاح قفل الموت يسمع .. يسمعه الامريكان بهلع فيحاولون الانبطاح)[73] .

حتى يختلط دم كمال بالطين ، ليتعشق الحب بالدم ، فتفوح رائحة الرازقي ، وتتلاشى خيوط الضوء : (على الطين الاسمر يفور الدم .. دم كثيف ، جميل .. دم كمال .. يئز الطين حين يمتزج به ، والاصابع تتقلص .. تنفذ في الارض .. تترك بقايا عرق ، ورائحة الرازقي ، ورذاذا من طلع النخيل .. الكف كلها تغوص ، وتبقى ثمة .. مثل جذر)[74]. في كتابتي لنقدي هذا .. تصورت ان محمد عاش مشاعر كمال كلها ، ولو كان هذا المبدع أما بي لسألته كيف رسمت هذا المشهد ؟ ومن الذي نقل لك مشهد موته الاخير؟ : (الجندي الاخر الذي ظل ساكنا يحدق بنصف عين نهض من رقدته الطينية .. دنا من كمال .. كانت السمتيات قد غادرت باتجاه البحر ، واختفت في دوامة الهباب .. خلع قمصلته ليتخفف من ثقلها ، وابقى جعبة عتاده ، امسك بالبندقية الملقاة – بندقية كمال وعلقها على كتفه ، وانحنى ليقيم كمالا .. كان الدم مخلوطا بالطين .. شاله على الكتف الاخرى ، ومضى في ليل الصحراء)[75] .

والخلاصة من منظور محمد / الروائي العليم / المؤلف :

(وكمال الذي عرضت توا شذرات من حياته هل يشبه في شيء كمال الذي عاش معنا ، وقاتل الايرانيين ست سنين وقذف الامريكان بالقنابل اليدوية ، وقتل منهم وجرح ليسقط برصاصاتهم بعد ان تحرر اخيرا من كوابيسه القديمة ؟ هناك اذ كان المطر يهطل فينفذ بدمه في مسامات الارض وعروقها، وتغوص كفه مثل جذر في طين الكويت)[76].

ومع دمه يغوص الكثير مما لم يطلع عليه المؤلف في شخصية كتبت واقعا عاشه العراقيون ، بالدم والنار والموت والحب معا.

الهوامش

1. لسان العرب ، ابن منظور ، (فصل العين = حرف الباء) ، مج1 ، ج2 ، 130-131 .
2. أنظر: الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً ، د. قيس النوري ، مجلة عالم الفكر مج10 ، العدد الأول ، 1979 .، الاغتراب في الذات ، حبيب الشاروني ، المصدر نفسه ، العلم والاغتراب والحرية ، يمنى الخولي ، القاهرة ، 1987م ، الاغتراب في الفن ، د. عبد الكريم هلال خالد ، ليبيا ، 1998م .
3. الاغتراب في الفن ، د. عبد الكريم هلال خالد ، 136 .
4. الاغتراب في الذات ، حبيب الشاروني ، 69 .
5. العلم والاغتراب والحرية ، يمنى الخولي ، 8 .
6. نقلاً من العلم والاغتراب والحرية ، المصدر السابق ، 18 .
7. الاغتراب ، فتح الله خليف ، مجلة عالم الفكر ، العدد المشار إليه ، 114 .
8. الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً ، د. قيس النوري ، 17/15/13 .
9. الموسوعة الفلسفية العربية ، المجلد الأول (الاصطلاحات والمفاهيم) ، رئيس التحرير معن زيادة ، ط1 ، 1986م ، 79 .
10. نقد الشعر في المنظور النفسي ، د. ريكان ابراهيم ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ، 1989م ، 94 .
11. التفسير النفسي للأدب ، د. عز الدين اسماعيل ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1963م ، 26 .
12. البناء الفني لرواية الحرب في العراق ، عبد الله ابراهيم ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ، 1963م ، 18 .
13. المصدر نفسه ، 110 .

14. الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم / دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط2 ، 1987م ، 11 .
15. غسق الكراكي ، سعد محمد رحيم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 2000م ، 13 .
16. المصدر نفسه ، 82 .
17. المصدر نفسه ، 84 .
18. المصدر نفسه ، 49-50 .
19. المصدر نفسه ، 50 .
20. المصدر نفسه ، 51 .
21. المصدر نفسه ، 52 .
22. المصدر نفسه ، 81 .
23. المصدر نفسه ، 81 .
24. المصدر نفسه ، 19 .
25. المصدر نفسه ، 84 .
26. المصدر نفسه ، 85-86 .
27. المصدر نفسه ، 23 .
28. المصدر نفسه ، 84 .
29. المصدر نفسه ، 84 .
30. المصدر نفسه ، 81 .
31. المصدر نفسه ، 20 .
32. المصدر نفسه ، 23 .
33. المصدر نفسه ، 100 .
34. المصدر نفسه ، 100 .
35. المصدر نفسه ، 105 .
36. المصدر نفسه ، 106 .
37. المصدر نفسه ، 113 .
38. المصدر نفسه ، 118 .
39. المصدر نفسه ، 118 .
40. المصدر نفسه ، 154 .
41. المصدر نفسه ، 125 .
42. المصدر نفسه ، 128 .
43. المصدر نفسه ، 105/104 .
44. المصدر نفسه ، 105 .
45. المصدر نفسه ، 104 .
46. المصدر نفسه ، 105 .
47. المصدر نفسه ، 118 .
48. المصدر نفسه ، 119 .
49. المصدر نفسه ، 101.
50. المصدر نفسه ، 102 .
51. المصدر نفسه ، 14 .
52. المصدر نفسه ، 46 .

53. المصدر نفسه ،73 .
54. المصدر نفسه ، 118 .
55. المصدر نفسه ، 143 .
56. المصدر نفسه ، 32 .
57. المصدر نفسه ، 131 .
58. المصدر نفسه ، 131 .
59. المصدر نفسه ، 133 .
60. المصدر نفسه ، 31-32 .
61. المصدر نفسه ، 18 .
62. المصدر نفسه ، 18 .
63. المصدر نفسه ، 18 .
64. المصدر نفسه ، 19 .
65. المصدر نفسه ، 19 .
66. المصدر نفسه ، 19 .
67. المصدر نفسه ، 19 .
68. المصدر نفسه ، 19 .
69. المصدر نفسه ، 19 .
70. المصدر نفسه ، 20/19 .
71. المصدر نفسه ، 20 .
72. المصدر نفسه ، 20 .
73. المصدر نفسه ، 20 .
74. المصدر نفسه ، 21 .
75. المصدر نفسه ، 21 .
76. المصدر نفسه ، 32 .

المصادر

1. الاغتراب ، فتح الله خليف ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الأول ، 1979 .
2. الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً ، د. قيس النوري مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الأول ، 1979 .
3. الاغتراب في الذات ، حبيب الشاروني ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الأول ، 1979.
4. الاغتراب في الفن ، د. عبد الكريم هلال خالد مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الأول ، 1979 .
5. الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم / دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط2 ، 1987م .

6. البناء الفني لرواية الحرب في العراق ، عبد الله ابراهيم ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ، 1963م.
7. التفسير النفسي للأدب ، د. عز الدين اسماعيل ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1963م
8. العلم والاغتراب والحرية ، يمنى الخولي ، القاهرة ، 1987م .
9. غسق الكراكي ، سعد محمد رحيم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 2000م .
10. لسان العرب ، ابن منظور ، (فصل العين – حرف الباء) ، مج1 ، ج2 ، دار صادر ، بيروت، ط4 ، 2004م.
11. الموسوعة الفلسفية العربية ، معن زيادة ، المجلد الأول (الاصطلاحات والمفاهيم) ، ط1 ، 1986م.
12. نقد الشعر في المنظور النفسي ، د. ريكان ابراهيم ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ، 1989م.